Volume 17, No. 1 June 2020

JOURNAL OF Islam in Asia

A Refereed International Biannual Arabic – English Journal

إنما يخشى الله من عباده العلماء

INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA

JOURNAL OF Islam in Asia
Volume 17, No. 1. June 2020
ISSN: 1823-0970 E-ISSN: 2289-8077

Journal of Islam in Asia

EDITOR-in-CHIEF
Mohammed Farid Ali al-Fijawi

ASSOCIATE EDITOR
Homam Altabaa

EDITORIAL ASSISTANT
Kamel Ouinez

EDITORIAL ADVISORY BOARD

LOCAL MEMBERS

Rahmah Bt. Ahmad H. Osman (IIUM
Badri Najib bin Zubir (IIUM)
Abdel Aziz Berghout (IIUM)
Sayed Sikandar Shah (IIUM)
Thameem Ushama (IIUM)
Hassan Ibrahim Hendaoui (IIUM)
Muhammed Mumtaz Ali (IIUM)
Nadzrah Ahmad (IIUM)
Saidatolakma Mohd Yunus (IIUM)

INTERNATIONAL MEMBERS

Zafar Ishaque Ansari (Pakistan)
Abdullah Khalil Al-Juburi (UAE)
Abu Bakr Rafique (Bangladesh)
Fikret Karcic (Bosnia)
Muhammad Al-Zuhayli (UAE)
Anis Ahmad (Pakistan)

Articles submitted for publication in the *Journal of Islam in Asia* are subject to a process of peer review, in accordance with the normal academic practice.

© *2020 by* ***International Islamic University Malaysia***

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, translated, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior written permission of the publisher.

الخطاب الاجتماعي في القرآن الكريم ومقاصده

Social Discourse in the Holy Qur'an and its Purposes

Wacana sosial dalam Al-Quran Al-Karim dan tujuannya

رضوان جمال الأطرش*، وسيد عبيد الله عبيد**

الملخّص

يتناول البحث حقيقة الخطاب الاجتماعي في القرآن الكريم، ويبرز أهميته باعتباره المعيار الذي يعيد التوازن بين الفرد والمجتمع الإنساني، وهو خطاب تفاعلي يُظهر هوية المجتمع، ويناقش مصالحه وهمومه وقضاياه ومفاهيمه ومدى تفاعلاته ومشاركاته في البناء الحضاري، فهو حديث عن تطبيق العدالة الاجتماعية بكلّ ما تعني الكلمة. ثم يتطرّق البحث إلى دراسة أمثلة له من الآيات القرآنية لإبراز بعض مقاصدها النبيلة، كما يشير إلى مخالفات ارتكبتها البشرية في ظلّ هيمنة الحضارة المادّية على الروحانية، ويثبت أخيراً أن الاهتداء بالقرآن ولا سيما فهم مقاصد خطابه الاجتماعي يُمهّد الطريق لإعادة التوازن بين الحياة المادية والدين، وبين الإنسان وأخيه الإنسان. وطبيعة البحث تقتضي أن تكون دراسةً تحليليةً لبعض نماذج الخطاب الاجتماعي في القرآن الكريم، ثم شرحها وتفسيرها في ضوء ما قاله المفسرون القدامى والمعاصرون.

الكلمات المفتاحيّة: الخطاب، الاجتماع، المقاصد، القرآن الكريم.

Abstract

This research deals with the reality of the social discourse in the Holy Quran, and highlights its importance as the criterion that restores the balance between the

* أستاذ مشارك في قسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. radwan@iium.edu.my

** طالب دكتوراه في قسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. obaidsh1977@gmail.com

individual and the human society. It is an interactive discourse that displays the identity of society and discusses its interests, concerns, issues, concepts and the extent of its interactions and participation in civilizational building development, It discusses the application of social justice in every sense of the word. Therefore, the study examines examples derived from Quranic verses to highlight some of its noble purposes, as well as the violations committed by humanity in light of the dominance of materialistic civilization over spiritual civilization, and finally proves their guidance by the Quran, especially understanding the purposes of its social speech paves the way to rebalance between material life and religion, and between humans. And the nature of this research requires that it should be an analytical study of some models of social discourse in the Holy Quran, and then explains and analyzes in the light of what the ancient and contemporary interpreters said.

Keywords: Discourse, the Society, the Purposes, Holy Quran.

Abstrak

Kajian tesis ini membincangkan tentang wacana kemasyarakatan dalam Al-Quran AlKarim, ia menonjolkan kepentingannya sebagai kayu ukur yang mengimbangkan di antara seseorang dengan masyarakatnya. Ia adalah wacana interaktif yang menzahirkan identiti sesebuah masyarakat, dan membincangkan kepintingan, kebimbangan, persoalan, konsep sesbuah masyarakat dan sejauh mana jangkauan dan penglibatannya dalam pembinaan peradaban. Ia membicarakan tentang bagaimana keadilan masyarakat dapat diaplikasikan dengan sebenarbenarnya. Seterusnya kajian ini memaparkan contoh-contoh daripada ayat-ayat Al Quran untuk memperlihatkan maqasid atau fungsinya yang murni dan memperlihatkan pencabulan yang dilakukan oleh manusia akibat pengaruh tamadun duniawi mengatasi tamadun rohani dan akhirnya membuktikan bahawa dengan adanya panduan Al Quran dalam memahami wacana kemasyarakatan akan membawa ke arah pengimbangan semula di antara kehidupan material dengan agama, serta hubungan di antara sesama manusia. Oleh itu pendekatan kajian ini bersifat analitikal dengan menghuraikan contoh-contoh wacana kemasyarakatan dalam Al Quran AlKarim, kemudian menganalisisnya dan mentafsirkannya berpandukan kepada kajian ahli-ahli tafsir yang terdahulu dan yang kontemporari.

Kata Kunci: wacana, kemasyarakatan, maqasid, Al Quran.

المقدمة

صدق ابن خلدون في مقالته حين قال: "الإنسان مدني بالطبع"[1] فقد خلقه الله تعالى كائناً يمتلك قابلية الألفة، مع الآخرين، وخلق الناس متفاوتين في المصالح

[1] عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، (دمشق: دار يعرب، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ج١، ص١٣٧. هذه المقولة منسوبة إلى ابن خلدون، إلا أن الباحث رأى أن الرازي

والعقول والاهتمامات، ومن هنا نشأت الحاجة إلى التعارف والتآلف والتعاون. قال تعالى: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [الزخرف:٣٢]، ولذلك نرى الخطاب القرآني يراعي هذا الجانب من شخصية الإنسان، ويزوّده بأمور تناسبه، ويعطيه ما يناسب مقامه، ونجده جَعَل صلاحَ دينه ودنياه يعتمد على مقدار تعاونه وتكاتفه وتراحمه مع المسلمين، وجعل خسرانه في اختلافه وافتراقه وانقطاعه الروابط بينه وبين المسلمين، قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران:١٠٣]، فالخطاب يدلّ بوضوح على أن الدمار الحقيقي منبعه الفرقة والتشتّت، وأخبر نبيَّه صلى الله عليه وسلم أنه بريء ممن فارق دينه الحق وفرَّقه، وليس منهم، ولا هم منه[٢]. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [الأنعام:١٥٩]. كما أن النبي صلى الله عليه وسلم يحرّض على الالتزام بقانون الجماعة في أحاديث كثيرة، فشتان بين من يعيش بين الناس ويخالطهم ويصبر على أذاهم وبين من يعيش في كهف يعزل نفسه عنهم، قال صلى الله عليه وسلم: «الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[٣].

قال قبل ابن خلدون بقرنين: "إن الإنسان مدني بالطبع، ولا ينفك عن مخالطة الناس". فخر الدين الرازي، **الفراسة**، (أبوظبي: دار الكتب الوطنية، د.ط، ٢٠١٥م)، ص١٣.

[٢] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير الطبري**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ج١٠، ص٣٣.

[٣] رواه الترمذي وابن ماجة، وصححه الألباني. محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، **سنن الترمذي**، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، د.ت)، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب، رقم

وتبلغ أهمية الاجتماع أن جعل الله سبحانه وتعالى التزاور والاجتماع والتخالط مع المؤمنين في الجنة من أنواع النعيم، حيث ذكر ابن كثير[٤] حديثاً في قوله تعالى: ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ* إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**﴾ [الطور: ٢٥-٢٨]. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ هذا فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا»[٥].

ويُلاحظ أن القرآن العظيم يحتوي على آيات كثيرة تخاطب الجمع، كما أنه يقدّم المصلحة العامة على الخاصة دون أن يغفل عن مصالح الفرد أيضاً، وأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يرجحون مصلحة الأمة على مصالحهم الشخصية[٦]، ويربّون أمتهم على ذلك. فالمؤمن لا يستطيع أن يعيش لنفسه، دون الاهتمام ببني نوعه، بل قد يصيبه ما أصاب الآخرين من فساد وهلاك، قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال:٢٥]. ونرى كثيراً من العبادات المحضة لا يمكن أداؤها إلا بالجماعة كصلاة العيدين والجمعة، ومناسك الحج

الحديث: (٢٥٠٧)، ص٥٦٤؛ وأبو عبد الله محمد بن ماجة، **سنن ابن ماجة**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.م: دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت)، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم الحديث: (٤٠٣٢)، ص١٣٣٨.

[٤] أبو الفداء عماد الدين ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ج٧، ص٤٣٥.

[٥] تفرّد بهذه الرواية أنس بن مالك. أبو بكر أحمد العتيكي والبزّار، **البحر الزخار المعروف بمسند البزار**، تحقيق: عادلْبن سَعد، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط١، د.ت)، الحديث رقم: (٦٦٦٨)، ج١٣، ص٢٠٢.

[٦] كما في قوله تعالى: ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**﴾ [الكهف:٧١]. حيث أن موسى عليه السلام يخاف على غرق الأهل قبل أن يخاف على نفسه.

في زمان واحد ومكان واحد، كما أن معظم أمور الدين يصعب أداؤها وإنجازها إلا بالتعاون الجماعي في قيامها، كالصلوات الخمس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها.

حقيقة الخطاب الاجتماعي

قبل أن نخوض في بيان مقاصد الخطاب الاجتماعي في القرآن الكريم، نتطرّق إلى تعريف الخطاب الاجتماعي ونبين مكانة الاجتماع في الإسلام، ثم نتطرق إلى بيان مقاصد القرآن الكريم، ليكون خير معينٍ لمعرفة المقاصد القرآنية.

الخطاب الاجتماعي في اللغة والاصطلاح

ذُكرت كلمة الخطاب في ثلاث آيات من القرآن الكريم وهذه في الحقيقة ابتكار قرآني في المعجم العربي[٧]، وهي في اللغة مصدر المفاعلة من خطب يخطب، وهو بمعنى المراجعة والمشاورة. ومنه الخُطبة التي تختص بالموعظة، والخِطبة بطلب الزواج من المرأة. وفصل الخطاب في قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾ [ص:٢٠] ما ينفصل به الأمر من الخطاب[٨].

---

[٧] عبد الرحمن الحاج، **الخطاب السياسي في القرآن السلطة والجماعة ومنظومة القيم**، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٢م)، ص٢٠.

[٨] انظر: محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت)، ج١، ص٣٦١؛ ومحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، (الكويت: وزارة الإعلام، د.ط، د.ت)، ج٢، ص٣٧٢؛ والراغب الأصبهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، (دمشق: دار القلم، ط٤، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ص٢٨٦؛ وأبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج٢، ص١٩٨.

وفي الاصطلاح: له تعريفات متعددة، لكن الأنسب هو: "محادثة بين طرفين حول موضوع معين، يبدأها الأول بتوجيه الأفكار بشكل كلام له دلالات معينة إلى الطرف الآخر بهدف رد فعل معين من الآخر"[٩]. والخطاب بهذا التعريف عامّ يشمل القرآني وغيره، فالمراد بالخطاب القرآني هو: "كلام الله الخالد المدوّن في المصحف الشريف، المتعبّد بتلاوته المتوجه به إلى كل من يعقل ويفهم من المكلفين جميعاً من الإنس والجن باستثناء من كان طفلاً غير مميز أو مجنوناً أو نائماً، عن طريق سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين، بصيغ الأمر أو النهي أو صيغة النداء أو الخبر أو الوصايا وغيرها بقصد السمع والتنفيذ والطاعة لله ورسوله"[١٠].

والاجتماع في اللغة: مصدر باب الافتعال، وهو ضد الانفصال والافتراق، واجتمع القوم: انضمّ بعضهم إلى بعض، اتّحدوا واتّفقوا، كما سمي يوم الجمعة بها لاجتماع العرب قبل الإسلام فيه، أو لجمع خَلق آدم عليه السلام، أو اجتماع المسلمين لصلاة الجمعة في هذا اليوم[١١]. ومنه قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[الإسراء:٨٨]، وجاء في المعجم الوسيط: "يقال: رجل اجتماعيٌّ: مُزاول للحياة الاجتماعية، كثير المخالطة للناس"[١٢]. وعليها فالمجتمع: "جماعة من الناس

---

[٩] رضوان جمال الأطرش، **دراسة تطبيقية في الخطاب القرآني آفاق بيانية وصور بلاغية ودلالات**، (كوالالمبور: دار التجديد للطباعة والنشر والترجمة، ط٢، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م)، ص١١.

[١٠] المصدر السابق، ص١٢.

[١١] انظر: ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، ج٨، ص٥٣؛ وابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج١، ص٤٧؛ وأحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، (القاهرة: عالم الكتب، ط١١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ج١، ص٣٩٣.

[١٢] مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص١٣٥.

تربطها روابط ومصالح مشتركة وعادات وتقاليد وقوانين واحدة"[١٣]. وعلى هذا فعلم الاجتماع: "علمٌ يبحث في نشوء الجماعات الإنسانية ونموّها، وطبيعتها، وقوانينها ونُظُمها"[١٤].

وتكرر لفظ الجمع ومشتقاته ١٢٨ مرة في ١٢٢ آية من القرآن الكريم كلها تدور حول هذه المعاني، منها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾[الحج:٧٣][١٥].

والاجتماع في الاصطلاح: ينسجم مع المعنى اللغوي، فهو يدلّ على مجموعة من الأفراد الذين يعيشون مع بعضهم، وبينهم روابط ومصالح مشتركة، ويتبعون قوانين، وعادات، وتقاليد، وأعراف واحدة. والمجتمع الإسلامي هو: "الذي تميّز عن المجتمعات الأخرى بنظمه الخاصة وقوانينه القرآنية وأفراده الذين يشتركون في عقيدة واحدة، ويتوجهون إلى قبلة واحدة، ولهذا المجتمع وإن تكوّن من أقوام متعددة وألسنة متباينة خصائص مشتركة، وأعراف عامة وعادات موحدة"[١٦]. وهو يتشكل من الأسرة التي هي: "وحدة اجتماعية مكونة من أفراد تربطهم عوامل (بيولوجية) واحة سواء أكان هؤلاء من جيل واحد كالإخوة، أم من أجيال متعاقبة كالأجداد والآباء والأحفاد، فالأسرة أصغر مجموعة منظمة من أفراد"[١٧]، ومن القبيلة التي جعلها الله

---

[١٣] مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ج١، ص٣٩٦.

[١٤] مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ص١٣٥؛ ومختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ج١، ص٣٩٤.

[١٥] محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف**، (القاهرة: دار الحديث، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ص٢١٥-٢١٧.

[١٦] محمد أمين المصري، **المجتمع الإسلامي**، (الكويت: دار الأرقم، ط٤، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص١٧.

[١٧] جمال الدين محمد محمود، **أصول المجتمع الإسلامي**، (القاهرة: دار الكتاب المصري ـ بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٣٣. وللمزيد حول أصول المجتمع الإسلامي، انظر: محمد الطاهر ابن

وسيلة وذريعةً للتعارف، وقرّره بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات:١٣]. وهكذا يكون الترابط بين أبناء قرية أو مدينة، كبيرة كانت أو صغيرة، فكلها مجتمعات صغيرة داخل المجتمع الإسلامي.

المقصود بالخطاب الاجتماعي في القرآن: وجد الباحث صعوبة في تحديد الخطاب الاجتماعي في القرآن، وعليه فقد تمّ تعريف هذا الخطاب على أنه: تلك التكليفات القرآنية الموجهة إلى الجماعة ذات الهدف الواحد مركّزةً على دور الفرد وطبيعة علائقه مع نفسه ومع أسرته ومجتمعه، ومبيّنة حدود علاقة الجماعة مع جماعة أخرى في حدود ما أمر الله به ووفقاً لمقاصد كتابه.

مقاصد القرآن الكريم في اللغة والاصطلاح

المقاصد في اللغة: جمع مقصد، وهو مصدر ميمي مشتق من فِعل: قصد يقصد قصداً ومقصداً[١٨]. ولو تتبعنا معاجم اللغة العربية، نرى أن القصد ومشتقاتها، استعملت لمعان كثيرة، من أشهرها:

أ) الأَمّ، والاعتزام، والطلب: كما جاء في حديث طويل: « ... فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ،

عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

[١٨] إسماعيل بن حماد الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصِحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج٢، ص٥٢٤؛ والراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٦٧٢؛ والزبيدي، **تاج العروس**، ج٩، ص٣٦.

وَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ... »[19]. (الصواب قصد قتله) تأكدت من المصدر ووجدت الكلام صحيحاً قصد غفلته.

ب) الاعتدال والتوسط، كما في قوله تعالى: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**﴾ [لقمان:٩]، وقوله عز وجل: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ [التوبة:٤٢]. قال النسفي: "وسطاً مقارباً، والقاصد والقصد: المعتدل"[20]. وبهذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «القصدَ القصدَ تبلُغوا»[21]

ت) الاستقامة، والاعتماد، كقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [النحل: ٩]، قال الزمخشري: "والقصد مصدر بمعنى الفاعل، وهو: القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد، أي: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه"[22].

ومقاصد القرآن في الاصطلاح: هو "الغايات التي أُنزِل القرآنُ لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد" [23] أو إدراك مراد الله تعالى من كلامه المجيد. فيظهر أن المعنى

---

[19] مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (صحيح مسلم)**، (الرياض: دار طيبة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، رقم الحديث: (٩٧)، ص٥٧.

[20] أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (تفسير النسفي)**، تحقيق: يوسف علي بديوي، (بيروت: دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ج١، ص٦٨٢.

[21] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، (دمشق: دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث (٦٤٦٣)، ص١٦٠٩.

[22] أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، (بيروت: دار المعرفة، ط٣، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ص٥٦٨.

[23] عبد الكريم حامدي، **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٩هـ)، ص٢٩.

الاصطلاحي للمقاصد يتناسب مع جميع المعاني اللغوية المذكورة مباشرة أو غيرها، إلا أن علاقته بالمعنى الأول أظهر وأنسب.

وهناك مصطلح آخر قريب من مقاصد القرآن، وهو مقاصد الشريعة، كتب فيها المتقدمون والمعاصرون، وعرّفها ابن عاشور بقوله: "المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغايتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضاً معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها"[٢٤]. فالاطلاع على مقاصد الشريعة لا يمكن إلا بالرجوع إلى القرآن وفهم مقاصده، فمقاصد القرآن أعمّ من مقاصد الشريعة، وإن كان استخدام كلمة المقاصد للشريعة أكثر وأشهر من استخدامه للقرآن الكريم، والحقيقة أن مقاصد الشريعة جزء من مقاصد القرآن، حيث أن المصالح التشريعية في مقاصد الشريعة تستشف من عُشر آيات القرآن المشهورة بآيات الأحكام فقط، في حين أن مقاصد القرآن يشمل جميع الآيات القرآنية. ومن جانب آخر فإن مقاصد التشريع حظي بحد وافر من الاهتمام في القرون الماضية لكن التوجه نحو مقاصد القرآن مازال يحتاج مزيد من الاعتناء والتوجه.

---

[٢٤] محمد الطاهر ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٩٧٨م)، ص٥١. ولمقاصد الشريعة تعريفات متنوعة من المتقدمين والمعاصرين. انظر: محمد بن عمر فخر الدين الرازي، **الكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل**، تحقيق: أحمد حجازي السقا، (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٥٣؛ وأبو إسحاق إبراهيم الشاطبي، **الموافقات**، (السعودية: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج٢، ص١٧؛ وأحمد الريسوني، **مدخل إلى مقاصد الشريعة**، (القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ص٧.

أهمية فهم المقاصد

لا شك أن كل آية من القرآن لها مقاصد خاصة، وتختلف بمقاصدها عن الآيات الأخرى،[٢٥] ومن المعلوم أن الوقوف عليها له دور كبير في الوصول إلى التدبر والتفكر السليم، وبذلك يستطيع القارئ أن يطلع على مراد الله تعالى من إنزال القرآن الكريم، وسوره وآياته. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فمن فهم حكمة الشارع منهم كان هو الفقيه حقّاً"[٢٦]. وهذه المقاصد في الحقيقة أرواح الأعمال[٢٧]، فكل مفسر، ومحدث، وفقيه، وأصولي، وداعٍ يلزم له أن يطلع على مقاصد القرآن على قدر وسع طاقته.

ويؤكد الشيخ رشيد رضا على ضرورة التركيز على مقاصد القرآن للمفسر ويقول: "كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية، والهداية السامية"[٢٨]. ويمثل لذلك في مكان آخر بخوض المفسرين في الوقائع التاريخية بقوله: "بيّنّا مراراً أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن"[٢٩].

---

[٢٥] انظر على سبيل المثال إلى ما قاله العز بن عبد السلام في آية ٩٠ من سورة النحل. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ط، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ج٢، ص١٨٩-١٩٠.

[٢٦] أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، **بيان الدليل على بطلان التحليل**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفين، (د.م: المكتب الإسلامي، د.ط، د.ت)، ص٢٥٣.

[٢٧] الشاطبي، **الموافقات**، ج٣، ص٤٤.

[٢٨] السيد محمد رشيد، رضا، **تفسير القرآن الحكيم**، المشتهر **بتفسير المنار**، (القاهرة: دار المنار، ط٢، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)، ج١، ص٧.

[٢٩] المرجع نفسه، ج١٢، ص١٠١.

تاريخ علم مقاصد القرآن الكريم

احتاج المسلمون قديماً وحديثاً إلى فهم مقاصد القرآن الكريم الجزئية والكلية، وصرفوا أثمن أوقاتهم للاطلاع عليها، وأظهروا فوائد كثيرة لمن خلفهم، إلا أن اصطلاح مقاصد القرآن شأنه كشأن سائر العلوم، كانت جذوره في عهد النبي صلى الله عليه وسلم[٣٠] ودوّن كمصطلح فيما بعد. والإمام الغزالي من أقدم العلماء الذين استخدموا هذا المصطلح وركّزوا عليها، حيث بين مقاصد القرآن في ستة نقاط، هي:

١. تعريف المدعو إليه.
٢. تعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.
٣. تعريف الحال عند الوصول إليه.
٤. تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله وسره، ومقصوده التشويق والترغيب
٥. حكاية أحوال الجاحدين
٦. تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد[٣١].

ثم جاء الإمام الرازي وذكر أن مدار القرآن الكريم والمقصود من كله تقرير أمور أربعة: "الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر"[٣٢].

---

[٣٠] "نشأت المقاصد الشرعية مع نشأة الأحكام الشرعية نفسها". نور الدين بن مختار الخادمي، **علم المقاصد الشرعية**، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ص ٥٣-٦١.

[٣١] انظر: أبو حامد الغزالي الطوسي، **جواهر القرآن**، تحقيق: محمد رشيد رضا القبّاني، (بيروت: دار إحياء العلوم، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص٢٣-٢٤.

[٣٢] فخر الدين محمد بن عمر الرازي، **مفاتيح الغيب**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ج١، ص١٧٩، وج٢٠، ص٢٢٦.

وأما الإمام العز بن عبد السلام فكاد يحصر مقاصد القرآن في جلب المصالح ودفع المفاسد بقوله: "ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها "[٣٣]

ومن أشهر من تكلّم من المعاصرين حول مقاصد القرآن هو الشيخ رشيد رضا، حيث ذكر عشرة مقاصد للقرآن الكريم، هي:

١. بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة وضلال أتباع الرسل فيها
٢. بيان ما جهل البشر من أمور النبوة والرسالة ووظائف الرسل.
٣. إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام.
٤. الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني.
٥. تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الواجبة والمحظورة.
٦. بيان حكم الإسلام السياسي الدولي: نوعه وأساسه وأصوله العامة.
٧. الإرشاد إلى الإصلاح المالي.
٨. إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها، وفلسفتها.
٩. إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.
١٠. تحرير الرقبة"[٣٤]

ثم جاء النورسي وبين أن المقاصد الأساسية من القرآن الكريم وعناصره الأصلية أربعة: "التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة".[٣٥] واختلف معه ابن عاشور في أسلوبه وذكر المقصد الأعلى من القرآن الكريم هو صلاح الأحوال الفردية،

---

[٣٣] عز الدين بن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، ج١، ص٨.

[٣٤] السيد محمد رشيد رضا، **الوحي المحمدي**، (بيروت: عز الدين للطباعة والنشر، ط٣، ١٤٠٦هـ)، ص١٩٣-٣٤٨.

[٣٥] بديع الزمان سعيد النورسي، **إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز**، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، (القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ط٣، ٢٠٠٢م)، ص٢٤.

والجماعية، والعمرانية، ثم لخص المقاصد في ثمانية أمور، هي: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وتهذيب الأخلاق، والتشريع، وسياسة الأمة، والقصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، والتعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، والمواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، والإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول[٣٦].

وأما الشيخ القرضاوي فلا يميل إلى حصر مقاصد القرآن، فالمقاصد عنده كثيرة، لكنه خصّ بالذكر منها: "١- تصحيح العقائد والتصورات للألوهية والرسالة والجزاء. ٢- تقرير كرامة الإنسان وحقوقه، وخصوصاً الضعفاء من الناس. ٣- توجيه البشر إلى حسن عبادة الله تعالى وتقواه. ٤- الدعوة إلى تزكية النفس البشرية. ٥- تكوين الأسرة الصالحة وإنصاف المرأة. ٦- بناء الأمة الشهيدة على البشرية. ٧- الدعوة إلى عالم إنساني متعاون"[٣٧].

وهناك أقوال أخرى كثيرة في بيان مقاصد القرآن قريب مما ذُكر فلا حاجة إلى إيرادها جميعا. فعُلم من صنيع العلماء القدامى والمعاصرين بأن فهم مقاصد القرآن يختلف من عالِم لآخر، ويمكن بسطها، وزيادة مقاصد جديدة عليها، والمجال مفتوح أمام الباحثين والدارسين لمزيد من الاستفادة والاستنارة بمقاصد القرآن الكريم. كما أن هذا المبحث يُعدّ محاولة لفهم بعض مقاصد الخطاب الاجتماعي في القرآن الكريم.

مقاصد الخطاب الاجتماعي في القرآن

إن هذا النوع من الخطاب القرآني قائم في أصله على التزاوج، لقوله تعالى: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الذاريات:٤٩]، فالزوجية في خلق

---

[٣٦] انظر: محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط، ١٩٨٤م)، ج١، ص٣٨-٤١.

[٣٧] يوسف القرضاوي، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، (القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩)، ص٧٣.

الأشياء لها بعد اجتماعي كبير، هو: بعد المشاركة في بناء الأشياء والتعاون مع الآخرين، وهذا يعني أن النفس التي تشارك الآخرين وتتعاون معهم نفسية إيجابية لا تعرف الانطوائية والأنانية، ولهذا جاءت حوالي ٩٠٪ من الخطابات القرآنية تخاطب الجماعة. ومقاصد هذا الخطاب وإن كانت جزءاً من مقاصد القرآن العامة، إلا أنها متعلقة بالعمل الجماعي وتنميته، وهذه المقاصد كثيرة لا يمكن إحصاؤها، ولا يسمح البحث بذكر الأمثلة لجميعها، فنشير إلى بعض منها، ليكون نموذجاً عملياً لما سبق ذكره.

أ) العمل مع الجماعة طريق لحفظ الدين ونيل السعادة الأخروية

لا شك أن حفظ الدين أهمّ المقاصد الخمسة المشهورة للشريعة[٣٨] وأجلها، ويعنى به: "تثبيت أركان الدين وأحكامه في الوجود الإنساني والحياة الكونية، وكذلك العمل على إبعاد ما يخالف دين الله ويعارضه، كالبدع ونشر الكفر، والرذيلة، والإلحاد، والتهاون في أداء واجبات التكليف"[٣٩]. وهذا لا يمكن صناعته إلا من خلال جهود جماعية، لأن الإنسان قليل بنفسه وكثير بإخوانه، وأن «يد الله مع الجماعة»[٤٠]، وهو الذي أمرنا في كثيرٍ من آياته بالألفة وترك الفُرقة، لأن الفرقة هلكة، وأن الجماعة نجاة[٤١].

---

[٣٨] قال الشاطبي: "ومجموع الضروريات خمسة، وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قالوا: إنها مراعاة في كل ملّة". الشاطبي، **الموافقات**، ج٢، ص٢٠.

[٣٩] نور الدين بن مختار الخادمي، **علم المقاصد الشرعية**، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ص٨١.

[٤٠] رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث حسن غريب. الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، (٢١٦٦)، ص٤٩٠.

[٤١] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، **الجامع لأحكام القرطبي (تفسير القرطبي)**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ج٥، ص٢٤١.

ولعلّ الجانب الأصعب في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء كان في تعاملهم مع أممهم، حيث كانوا يحزنون ويتأثرون بمن لا يختار السعادة الحقيقية لنفسه، ويشتد هذا التأثر حتى يضيق صدر النبي صلى الله عليه وسلم بدرجة أن الله يعبّر عنها بقتل النفس في قوله: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ [الكهف:٦]، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان مطمئناً بمآله في الجنة، حيث أن الله تعالى وعده في آيات كثيرة بالجنة، وأنه تعالى لا يخلف الميعاد، قال تعالى: ﴿**لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ [الفتح:٢]، وما أجمل تعبير النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الحالة الحرجة، وشفقته الشديدة بأمته في قوله: «إنما مثلي ومثلُ النّاسِ كمثلِ رجلٍ استوقَدَ نارًا، فلمّا أضاءتْ ما حوله جعل الفراشُ وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعْنَ فيها، فجعلَ الرَّجلُ يَزَعُهُنَّ ويغلبنه فيقتحمنَ فيها، فأنا آخذ بحُجزِكم عنِ النّار، وأنتم تقتحمون فيها».[٤٢]، وبناءً على هذه العاطفة القوية مع الجماعة أمر بأن يكون رحيماً بمن حوله، قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران:١٥٩].

ولا شك أن العمل الجماعي للوصول إلى الغاية المرجوّة لا يكون إلا بالتماسك الشديد بين أعضاء الجماعة، فحثّ الله تعالى البشرية لتعتمد على التعاطف والمودة في الإيمان والتقوى حتى تدوم العلاقة بينهم، وأن يكونوا صفاً كأنهم بنيان مرصوص، حيث قال: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف:٦٧]، فتعنى الآية أنه: "تنقطّع في ذلك اليوم كل خلّة بين المتخالّين في غير

[٤٢] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، رقم الحديث: (٦٤٨٣)، ص١٦١٣.

ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتاً إلا خلّة المتصادقين في الله، فإنها الخلّة الباقية"[٤٣]. والمجتمع الإسلامي يحظو بنعمة الأخوة، والعلاقات الحميمة الدائمة.

ب) العمل مع الجماعة يعين على عمران الأرض وحمل الأمانة الكبرى

خلق الله الإنسان وكرّمه بالعقل، واستخلفه في الأرض، وأعطاه قابلية حمل أمانته التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، ومكّنه من عمارة الأرض[٤٤] وتحقيق ما أراده تعالى، وأرسل إليه الرسل ليرشده إلى منهج عمران الأرض الصحيح، وأمره بالعبادة الخالصة: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود:٦١]، فأظهر عناية خاصة بعمارة الأرض ورعاية الكون، وأوجب على عباده أن يعمروها[٤٥]، فبلغت أهميتها في الإسلام أن جعلها بعض العلماء المقصدَ العام للشريعة الإسلامية، قال علال الفاسي: "والمقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين

---

[٤٣] سعيد حوى، **الأساس في التفسير**، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج٩، ص٥١٦٤.

[٤٤] ويرى ابن خلدون أن العمران من اختصاصات الإنسان، وهو: "التساكن والتنازل في مصر، أو حِلّة للأُنس بالعشير، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش". ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ج١، ص١٣٢.

[٤٥] قال الجصاص الحنفي في تفسير الآية: "وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة، والغراس، والأبنية". أبوبكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ج٤، ص٣٧٨. وبهذا المعنى نقل القرطبي عن بعض علماء الشافعية: "الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب". القرطبي، **تفسير القرطبي**، ج١١، ص١٤٩.

فيها وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع"[٤٦].

وعمارة الأرض كما قال القرضاوي تكون: "بإصلاحها وإحيائها وإشاعة الحياة والنماء فيها، حتى يكون فيها جنَّات من نخيل وأعناب، وحدائق ذات بهجة، وثمر ينظر إلى ينعه، ويؤكل منه، ويؤخذ حقه يوم حصاده، وأنعام وخيل، وأنهار وديار، وصناعة وتجارة ... إلى آخر ما لابد للحياة منه"[٤٧]. فجميع ما يفعله البشر لاستمرار حياته وما يؤدي إلى عمران الأرض يكون من العبادة، "فكل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله؛ لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان"[٤٨].

ولا ننس أن إقامة الحضارات بشتى أشكالها المادي مبنية على إعمار النفوس البشرية وتزكيتها، من خلال الاهتمام بالجوانب المتعددة المعنوية والروحية والثقافية وغيرها، لأن بدونها يكون سبباً للهلاك والدمار، كما حكى الله لنا من بعض الأمم الماضية الذين أضاعوا ما أمرهم الله واكتفوا بإشادة القصور فاستكبروا في الأرض ورفضوا دعوات الرسل وهداياتهم، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [الروم:٩]. كما أن الأرض المعمورة تحتاج إلى أناس صالحين، يطبقون عليها شرع الله تعالى،

---

[٤٦] علاّل الفاسي، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، (د.م: دار الغرب الإسلامي، ط٥، ١٩٩٣م)، ص٤٥-٤٦.

[٤٧] يوسف القرضاوي، **التوكل**، (عمّان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص٥٩.

[٤٨] محمد متولي الشعراوي، **تفسير الشعراوي (خواطري حول القرآن)**، (القاهرة: مطابع أخبار اليوم، د.ط، د.ت)، ج٤، ص٢٢٠٧.

ويقيمون عدله الذي أراده لخلقه فيأتي الخطاب الإلهي: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء:٥٨]، والأمانة في هذه الآية وإن يدخل فيه جميع أنواع الأمانات[٤٩]، إلا أن سبب نزولها كان في إعطاء الوظائف والمناصب لأهلها، وهو موافق لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا ضُيِّعتِ الأمانةُ فانتظرِ السَّاعةَ». قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا أُسْنِدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر السَّاعة»[٥٠].

وهنا يجب أن نلفت النظر إلى ما أمره النبي صلى الله عليه وسلم في ضوء الآيات القرآنية، لنعرف مدى اهتمام الإسلام بهذا المبدأ، حيث روى أنس بن مالك عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»[٥١]، وفيه إشعار بأن الإنسان المسلم مهما ضاق به الزمن لا يدع عمارة الأرض، ولا يكفّ عن السعي والعمل ما دامت الحياة قائمة، كما أنه لا يجوز له أن يعيش لحظة بغير عمل، حتى وإن كان إسرافيل عليه السلام قد أمسك بالصور لينفخ فيه، ويهدم بعدها سُرادق الحياة كلها[٥٢].

وأمّا ما نُسب إلى الإسلام بأنه يرغّب أتباعه إلى الآخرة، ويبعدهم عن الدنيا ولذاتها، وأن التوكل هو ترك الزاد وعدم الأخذ بالأسباب، فلا يؤيده آية ولا

---

[٤٩] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج١٠، ص١٤٣.

[٥٠] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، الحديث رقم: (٦٤٩٦)، ص١٦١٥.

[٥١] الإمام أحمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، رقم الحديث: (١٢٩٨١)، ج٢٠، ص٢٩٦. وقال المعلّق: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[٥٢] انظر: يوسف القرضاوي، **الوقت في حياة المسلم**، (دمشق: الدار المتحدة، ط٦، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٥٣.

حديث[٥٣]. وخير دليل على ذلك أن أنبياء الله تعالى وهم أزهد الناس في الناس لم يغفلوا عن الدنيا و لم يتركوها، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي ترك أهله بأمر من الله وتوكلا عليه يدعو الله سبحانه وتعالى: ﴿**رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾ [إبراهيم:٣٧]، فلا يحب الإسلام التعطّل والتبطّل والنسلاخ من الإنسانية وترك الحيوية في مدّ يده إلى الأخرين[٥٤]، كما قال الراغب: "ولهذا ذُمّ من يدّعي التصوف فيتعطل عن المكاسب، و لم يكن له علم يؤخذ عنه، ولا عمل صالح في الدين يُقتدَى به، بل يجعل له همة عارية بطنه وفرجه، فإنه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معاشهم، ولا يرد إليهم نفعاً، فلا طائل في مثلهم إلا بأن يكدّروا الماء، ويغلوا الأسعار، ولهذا الشأن كان عمر رضي الله تعالى عنه إذا نظر إلى ذي سيماء سأل أله حرفة، فإذا قيل لا سقط من عينه"[٥٥]. فالذين حصروا الدين في الشعائر، وجعلوا العمل والسعي والعطاء خارجه ظلموا دينهم بالجهل، ويقول الشعراوي مخاطباً هؤلاء: "نقول لهم: العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود، ولا تفهموا العبارة على أساس أنها الشعائر فقط، فالشعائر هي إعلان استدامة الولاء لله. وتعطي شحنة لنستقبل أحداث الحياة، ولكن الشعائر وحدها ليست كل العبادة، فالمعاملات عبادة، والمفهوم الحقيقي للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض؛ فالحق سبحانه وتعالى قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ**﴾

---

[٥٣] قال الفراء الحنبلي: "ولا نعرف عالماً يقول: ترك الزاد أفضل. بل يقول أكثرهم: من قال هذا القول فهو مبتدع". أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، **كتاب التوكل**، تحقيق: يوسف بن علي الطريف، (الرياض: دار الميمان للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م)، ص٥٥.

[٥٤] قال الراغب فيمن يعمل لصلاح معاشه بما يكفيه: "ومتى كان سعي العبد في ذلك على الوجه الذي يجب، وكما يجب، يكون سعيه عبادة وجهاداً في سبيل الله تعالى". الحسين ابن المفضل الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٣٥.

[٥٥] المرجع نفسه، ص٢٦٧.

[الجمعة:٩] كأنه أخرجهم من البيع إلى الصلاة، و لم يخرجهم من فراغ بل أخرجهم من حركة البيع، وجاء بـــ (البيع) لأنه العملية التي يأتي ربحها مباشرة."[٥٦].

وبهذا ظهر مدى اهتمام الإسلام بإتقان العمل في إدارة العالم، وأن "الأمانة دعامة بقاء الإنسان، ومستقر أساس الحكومات، وباسط ظلال الأمن والراحة، ورافع أبنية العز والسلطان، وروح العدالة وجسدها، ولا يكون شيء من ذلك بدونها"[٥٧]، كما ثبت بوضوح أن جميع ما ذكر لا يتحقق إلا بتنسيق جهود مجموعة متماسكة، يتعارفون ويتفاهمون ويتعاونون فيما بينهم للوصول إلى عمارة الأرض وما يجب لها، وهو من المقاصد الأساسية للخطاب القرآني الاجتماعي.

ت) الوقوف على سنن الله في التمكين والإهلاك

التاريخ مليء بإيجابيات المتقدمين وسلبياتهم، وأن الله سبحانه وتعالى قصّ لنا في القرآن الكريم من الأمم الماضية ما يكفي للاعتبار، وأنه حثّ على السير في الأرض والاتعاظ من إبادة الله لكثيرٍ منهم، وهو في الحقيقة رحمة منه وإعطاء فرصةٍ لاستدراك الفوات وتصحيح الأخطاء، فالذي يستفيد من تجارب البشر ويتعلم منها، ويقف على سنن الله في التمكين أو الإهلاك والإفناء، فلا يكرر أخطاء الأمم التي أخذت بعقاب الله، لأن المؤمن لا يُلدغ من جحر واحد مرتين، ولهذا تأتي خطابات اجتماعية متكررة في القرآن تأمر المسلمين بالسير في الأرض والنظر في مآل المكذبين ومن شابههم[٥٨]، ومنه قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾

---

[٥٦] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، ج٤، ص٢٢٠٦.

[٥٧] رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج٥، ص١٧٨.

[٥٨] ومثله قوله تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [النمل:٦٩]، وقال جلّ وعلا: ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**﴾ [القصص:٤٠].

[الأنعام:١١]، قال رشيد رضا: "وفي هذه الآية عبرة لنا في حال الذين أضاعوا الدين، من أهل التقليد الجامدين، وأهل التفرج الملحدين، فهي تنادي بقبح التقليد وتصرّح بوجوب النظر في الآيات والاستدلال بها، وبأن التكذيب بالحق والحرمان منه معلول للإعراض عنها، وتثبت أن الإسلام دين مبني على أساس الدليل والبرهان، لا كالأديان المبنية على وعث التقليد للأحبار والرهبان، أو الرؤساء والكهان"[٥٩].

ولا يحصل المقصد القرآني بمجرد النظر، بل قد يكون سبباً لمقت الله وعذابه، لا سيما ما يتعلق بالسفر إلى أماكن ثمود ومدين وغيرها من الأماكن التي نزل فيها عذاب الله تعالى، كما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بأرض الحجر قال: «لا تدخلوا مساكنَ الذينَ ظلمُوا أنفسَهم أن يصِيبكُم ما أصابهم ، إلاّ أن تكونوا باكينَ . ثم قَنَّعَ رأسَه، وأسرعَ السيرَ حتى أجازَ الواديَ»[٦٠]، فالمطلوب من أهل النهى والأبصار السير والنظر الحقيقيين المثمرين، قال أبو حيان في تفسيره: "والظاهر أن السير المأمور به: هو الانتقال من مكان إلى مكان. وأن النظر المأمور به: هو نظر العين. وأن الأرض: هي ما قرب من بلادهم من ديار الهالكين بذنوبهم، كأرض عاد ومدين ومدائن قوم لوط وثمود. وقال قوم: السير والنظر هنا ليسا حسيين، بل هما جولان الفكر والعقل في أحوال من مضى من الأمم التي كذبت رسلها، ولذلك قال الحسن: سيروا في الأرض لقراءة القرآن. أي: اقرؤوا القرآن وانظروا ما آل إليه أمر المكذبين. واستعارة السير في الأرض لقراءة القرآن فيه بعد"[٦١].

---

[٥٩] رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج٧، ص٣٠٤.

[٦٠] الإمام البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر، ص١٠٨٥.

[٦١] أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، **البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ج٤، ٨٥. وقال ابن عادل: "ويحتمل هذا السير أن يكون بالعقول والفكر، ويحتمل السير في الأرض". أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١،

وتفسير السير بمعناه المجازي وإن كان بعيداً كما قال أبو حيان، إلا أنه على أقل تقدير يظهر أهمية التعقل والتدبر بجانب النظر والانتقال الجسمي، وبهذا يكون السائرين "الذاهبون في الديار لأجل الوقوف على الآثار، توصلاً للعظة بها والاعتبار ولغيرها من الفوائد التي عرفها التاريخ"[٦٢].

والمتدبر في الخطاب القرآني الاجتماعي المتعلق بالأمم الماضية يدرك أن القوة المادية، وكثرة المال والأهل لا تمنع عذاب الله وهلاكه، فهذا قارون خسف به وبداره وثرواته الأرض، كما أن فرعون غرق في البحر وهلك مع جيشه وملئه الذين يعتمد عليهم في أموره، وهكذا حال غيرهم من المستكبرين الجبارين، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾ [الأنعام:٦]، وفي ذلك يقول ابن عاشور: "والإهلاك: الإفناء، وهو عقاب للأمة دال على غضب الله عليها، لأن فناء الأمم لا يكون إلا بما تجره إلى نفسها من سوء فعلها، بخلاف فناء الأفراد فإنه نهاية محتمة ولو استقام المرء طول حياته، لأن تركيب الحيوان مقتض للانتهاء بالفناء عند عجز الأعضاء الرئيسية عن إمداد البدن بمواد الحياة فلا يكون عقابا إلا فيما يحف به من أحوال الخزي للهالك"[٦٣].

والآيات الكريمة تنبّه الأحياء بعاقبة الأموات، وتنبؤهم بأن سنة الله لا تتغير، ولا مبدّل لكلماته، وأن الله ينجّي الذين آمنوا واتقوا ويهلك المستكبرين المفسدين،

١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ج٨، ص٤٣. وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ...﴾ [القصص:٤٠] "ببصائرهم وقلوبهم". القرطبي، **تفسير القرطبي**، ج١٦، ص٤٠٢.

[٦٢] محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج٥، ص٥١٢.

[٦٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٧، ص١٤٠.

وهذا شأن كل من لا يراعي أحكام الله تعالى، ويعيش على غير ما يريده الله. ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾ [الفتح:٢٣].

ث) دور العمل الجماعي في إصلاح المجتمع ومحاربة الفساد

يحثّ الخطاب القرآني الاجتماعي البشريةَ على إقامة مجتمع سليم قائمٍ على أسس إيمانية، وسلوكيات صحيحة، فالله تعالى لا يحب الفساد، ويحبّ الإصلاح في جميع جوانبه، بل جعله من مقاصد بعثة كثيرٍ من الأنبياء وعلى رأسهم شعيب عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب**﴾ [هود:٨٨]، والصلاح في اللغة ضد الفساد،[٦٤] ويقول الإمام الرازي: "كل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك في العقائد، أو في الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون، فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالاً على أكمل الدرجات"[٦٥].

بعث الله الأنبياء لتحقيق هذه المهمة العظيمة، لإصلاح ما أفسده الناس، وهو كما قال سيد قطب: "الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه، وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي، ويضيع بعض الفرص. فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة، ويعوض عنهما كسباً طيباً ورزقاً حلالاً، ومجتمعاً متضامناً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام!"[٦٦]. ولا يتحقق ذلك إلا بالعمل الجماعي المتناسق، فلذلك نجد

---

[٦٤] قال ابن منظور: الصلاح ضد الفساد، وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه، وأصلح الدابة: أحسن إليها فصلحت، والصلح: السلم". ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، ج٢، ص٥١٦.

[٦٥] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٨، ص٢٠٨.

[٦٦] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ط٣٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ج٤، ص١٩٢١.

آيات كثيرة في القرآن الكريم، تخاطب الجماعة، وتطلب منهم القيام بمهمة الإصلاح، وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا جزء من هذه المهمة المباركة.

ومن جانب آخر نرى أن الخطاب الاجتماعي القرآني قائم على برنامج تغييري شامل، يبيّنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:١١]، فالقرآن يصرّح بمبدأ عظيم في التغيير الإيجابي، وهو أن التغيير من الفساد إلى الصلاح وعكسه لا يمكن إلا بتغيير النفوس، فإرادة الإصلاح ولا سيما الإرادة الاجتماعية تأتي قبل العمل فيه، ولا يفرّق هذا القانون بين الحق والباطل، فكل مجموعة أرادت التغيير وبدأت بما في نفوسها فهي بلا شك ناجحة في الدنيا، فلذلك يأتي الخطاب القرآني الاجتماعي ليحضّ المسلمين على توحيد نشاطاتهم وتنسيقها، ويحذّرهم من الفرقة والاختلاف، ويعدهم بفساد كبير إذا لم يجتمعوا على كلمة واحدة ضد أعدائهم، قال تعالى: ﴿**وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٍ**﴾ [الأنفال:٧٣].

ونفهم من الخطاب الاجتماعي القرآني أن وجود جماعة من المصلحين يستجلب المغفرة، ويدفع العذاب عن الأمة، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود:١١٧]، قال سيد قطب: " وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال. وإما بهلاك الانحلال والاختلال"[٦٧].

[٦٧] المصدر السابق، ج٤، ص١٩٣٣.

ج) مكانة العمل الجماعي في إقامة العدل ودفع الظلم

إن التوحيد أساس الأديان السماوية وجوهرها الحقيقي، واختار الله لنفسه أن يكون عادلاً وجعل العدل اسماً من أسمائه الحسنى، وأمر عباده بالعدل في جميع الأحوال، وبين أن الظلم سبب في هلاك الأمم والشعوب،[٦٨] قال تعالى: ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ**﴾ [الحج:٤٥]. فالعدل مقصد من مقاصد القرآن العظيمة[٦٩]، ويفهم من القرآن الكريم أن: "كل الآيات التي دعت إلى توحيد الله سبحانه وتعالى معنية بمقصد العدل بين الناس. بل حتى الآيات التي أمرت بالأخلاق والآداب العامة فإن من مقاصدها تحقيق العدل في التعامل"[٧٠].

وجعل الله من وظائف الأنبياء والرسل تحقيق العدالة في جميع جوانب الحياة المتعددة، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد:٢٥]، فالمقصود من إرسال الرسل كما قال ابن تيمية: "أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله، وحقوق خلقه"[٧١]، كما شرح ابن عاشور الميزان في هذه الآية بأنه: "مستعار للعدل بين الناس في إعطاء حقوقهم لأن مما يقتضيه الميزان وجود طرفين يراد معرفة تكافئهما"[٧٢]، وهذه مهمة أتباع الرسل ليجمعوا أمرهم على

---

[٦٨] ذُكر عدالة الله ٥٥ مرةً في القرآن الكريم، كما ذُكر أمره لعباده بالعدل مع الجميع٤٧ مرة، وأن الظلم سبب الهلاك ٢٤مرةً، وأنه أنزل الكتاب لإقامة العدل ١٨ مرةً. انظر: حنان اللحام، **مقاصد القرآن** (ولقد كرمنا بني آدم)، (دمشق: دار الحنان للنشر، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص١٦٦.

[٦٩] كان شيخ الإسلام ابن تيمية هو أول من أشار إلى العدل باعتباره مقصداً شرعياً. محمد سليم العوّا، **مقاصد القرآن الكريم (٢)**، (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط١، ١٤٣٨هـ/٢٠١٦م)، ص٣٤.

[٧٠] حنان اللحام، **مقاصد القرآن الكريم**، ص١٦٦.

[٧١] أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، **السياسة الشرعية**، (السعودية: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، د.ط، ١٤١٩هـ)، ص٢٣.

[٧٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٧، ص٤١٦.

السعي لإقامة هذا العدل المطلوب الشامل لجميع الأفراد والمجتمعات، وبهذا يحاولون دفع الظلم عن غيرهم كما يدفعونه عن أنفسهم، قال تعالى: ﴿**لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُون**﴾ [البقرة:٢٧٩].

وبعد إمعان النظر في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية نجد أحكاماً كثيرة فرضت لتراعي العدالة الاجتماعية وتدافع عن المستضعفين، كآيات الميراث والوصية، وما يتعلّق بالأحوال الشخصية، وإباحة البيوع وحرمة الربا، وتقسيم الغنيمة والفيء وغيرها، قال تعالى: ﴿**مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾ [الحشر:٧]، وقال ابن عاشور في تفسيره: "من مقاصد الشريعة أن يكون المال دولة بين الأمة الإسلامية على نظام محكم في انتقاله من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد"[٧٣].

ومن ميزات الخطاب الاجتماعي في القرآن الاهتمام بالعدل، وهو في الإسلام يشمل عدل الإنسان مع نفسه، وعدله مع أسرته وأصدقائه، بل ويأمر المؤمنين بتحقيق العدالة في حق أعدائهم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة:٨]، فهذا هو العدل المطلوب، وهو مقصد من مقاصد الخطاب القرآني الاجتماعي.

الخاتمة

بعد أن أتم الله على الباحثين نعماءه العظمى ووصل هذا البحث إلى مقاصده، برزت بعض النتائج المهمة، وهي كالآتي:

---

[٧٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٨، ص٨٥.

١. من أهم ميزات مقاصد الخطاب الاجتماعي في القرآن تحقيق الرحمة بين الناس، بدء من الرحمة مع النفس والوالدين والجيران والأصدقاء وحتى النباتات والحيوانات والجمادات.

٢. أن المقاصد العليا للخطاب الاجتماعي في القرآن حثت على تحقيق التوازن في الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع ككل، فالناس سواسية في التملك والتعلم والسكن والتعبير وغير ذلك...فإن أردنا تحقيق الأمن والسلم الاجتماعي فلا بد من إحياء هذا الهدف النبيل، لأنه سر ركين من أسرار الحضارة والرقي بالأفراد والمجتمع.

٣.أظهرت مقاصد الخطاب الاجتماعي في القرآن الحكيم أن الحياة الكريمة لا بد لها من تحقيق التكامل بين الذكور والإناث والرجال والنساء، الأمر الذي يحقق الترابط والانسجام بين أفراد المجتمع الواحد ويقوي العلائق بين الناس.

٤.أن القرآن بخطابه العالمي دعا إلى التعاضد والتعاون وتفعيل التكافل الاجتماعي، من أجل تعزيز قيم التعاطف والتضامن باعتبارها وسائل تقف في وجه تنمية مشاعر العداء والبغضاء والحسد والحقد والضغينة، الأمر الذي يجعل من المجتمع أياً كان قوياً.

المصادر والمراجع

Abū Ḥafṣ, ʿAumar ibn ʿAlīy ibn ʿAādel Al-Damešqīy. Al-Lubāb fī ʿAulūm al-Ketāb. Taḥqīq: ʿAdel Aḥmad ʿAbd al-Mawjūd, wa ʿAlīy Muḥammad Muʿawॅeḍ. Beirut. Dār al-Kutub al-ʿAelmeīya. 1s ed. 1419/1998.

Abū Hayyān, Muḥammad ibn Yūsuf al-Andulusīy. Al-Baḥr al-Muḥīṭ. Taḥqīq: ʿAādel Aḥmad ʿAbdu al-Mawjūd, wa ʿAlīy Muḥammad Muʿawॅeḍ. Beirut. Dār al-Kutub Al-ʿAelmeīya. 1st ed. 1413.

Al-Bazzār, Abū Bakr Aḥmad. al-Baḥr al-Zuḫār, Musnad al-Bazzār. Taḥqīq: ʿAādel ibn Sॅaʿad. Al-Madīna Al-Munawwara. Maktaba al-ʿAulūm wa al- Ḥekam. N.ed. N.D.

Al-Farrā, Abū Yʿalā Muḥammad ibn al-Ḥosayn Al-Ḥanbalīy. Ketāb al-Tawakkul. Taḥqīq: Yūsuf ibn ʿAlīy al-Ṭarīf. Al-Reyāḍ. Dār al-Mymān le al-Našr wa al-Twzīʿa. 1st ed. 1435/2014.

Al-Fāsīy, ʿAallāll. Maqāṣed al-Šarīʿaa al-Islāmeīya wa Makāremuhā. N. Dār al-Ġarb al-Eslāmīy. 5th ed. 1993.

Al-Ġazālīy, Abū Ḥāmed al-Ṭūsīy. Jawāher Al-Qurān. Taḥqīq: Muḥammad Rašīd Raḍā Al-Qubbānīy. Beirut.Dār Eḥyā al-ʿAulūm. 2nd ed. 1406/1986.

Al-Ḥāj, ʿAbd al-Raḥman. Al-Ḫeṭāb al-Seyāsīy fī al-Qurān al-Sulṭa wa al-Jamāʿaa wa Manẓūma al-Qeyam. Beirut. Al-Šabaka al-ʿAarabeīya le al-Abḥāṯ wa al-Našr. 1st ed. 2012.

Al-Jaṣṣāṣ, Abū Bakr Aḥmad ibn ʿAlīy al-rāzīy. Aḥkām al-Qurān. Taḥqīq: Muḥammad al-Sādeq Qamḥāwīy. Beirut. Dār Eḥyāa al-Turāṯ al-ʿArabīy, wa Mūassesa al-Tāryḫ al-ʿAarabīy. N. ed. 1412/1992.

Al-Jawharīy, Esmāʿaīl ibn Ḥammād. Al-Ṣeḥāḥ Tāj al-Luġa wa Ṣeḥāḥ al-ʿArabeīya. Taḥqīq: Aḥmad ʿAbd Al-Ghafūr ʿAṭṭār. Beirut. Dār al-ʿAelm le al-Malāyīn. 2nd ed. 1399/1979.

Al-Laḥām, Ḥannān. Maqāṣed al-Qurān, Wa Laqad Karramnā Banīy Ādam. Demašq. Dār al-Ḥannān le al-Našr. 1st ed. 1425/2004.

Al-Nasafīy, Abū al-Barakāt ʿAbd Allah ibn Aḥmad ibn Maḥmūd. Madārek al-tanzīyl wa ḥaqāyeq al-Tawīl. Tafsīr Al-Nasafīy. Taḥqīq: Yūsūf ʿAlīy Badawīy. Beirut. Dār al-Kalām al-Ṭayyeb. 1st ed. 1419/1998.

Al-Nūrasīy, Badīʿa al-Zamān SaʿaĪd. Išārāt al-Iʿajāz fī Maẓān al-Iyjāz. Taḥqīq: Eḥsān Qāsem al-Ṣāleḥīy. Ciro. Šareka Sūzler le al-Našr. 3rd ed. 2002.

Al-Rāġab, Al-Ḥusyn ibn al-Mufaḍḍal al- Iṣfahānīy. Al-Ḏaryʿaa ela Makārem al-Šareīʿaa.Beirut. Dār al-Kutub al-ʿAelmīya. 1st ed. 1400/1980.

Al-Rāzīy, Faḫr al-Dīn Muḥammad ibn ʿAumar. Mafātīḥ al-Ġayb. Beirut. Dār al-Fekr le al-Ṭabāʿaa wa al-Našr wa al-Twzīʿa. 1st ed. 1401/1981.

Al-Rysūny, Aḥmad. Madḫal elā Maqāṣed al-Šarīʿaa. Ciro. Dār al-Kalema le al-Našr wa al-Twzīʿa. 1st ed. 1431/2010.

Al-Sulamīy, ʿAez al-Dīn ʿAbd al-ʿAazīz ibn ʿAbd al-Salām. Qawāʿaed al-Aḥkām fī Maṣāleḥ al-Ānām. Ciro. Maktaba al-Kuleīyāt al-Azhareīya. N. ed. 1411/1991.

Al-Ṭabarīy, Abū JaʿafarMuḥammad ibn Jarīr. JāmeʿaBayān ʿan Tawīl Āye al-Qurān, Tafsīr al-Ṭabarīy. Taḥqīq: ʿAbd Allah ibn ʿAbd al-Muḥsen al-Turkīy. Ciro. Hejr le al-Ṭabaʿa wa al-Našar wa al-Twzīʿ wa al-Eʿalān. 1st ed. 1422/2001.

El-Aṭraš, Reḍwān Jamāl. Derāsat Taṭbīqeīya fī al-Ḫeṭāb al-Qurāneīya Āfāq Bayāneīya wa ṣuwar Balāġeīya wa Dalālāt. Kualalumpur. Dār al-Tajdīd le al-Ṭabāʿaa wa al-Našr wa al-Tarjama. 2nd ed. 2008.

Ḥāmedīy, ʿAbd al-Karīm. Maqāṣed al-Qurān men Tašrīʿa al-Aḥkām. Beirut. Dār Ibn Ḥazm le al-Ṭabāʿaa wa al-Našr wa al-Twzīʿa. 1st ed. 1429.

Ḥawa, Saʿaīd. Al-Asās fī al-Tafsīr. Ciro. Dār al-Salām ae al-Ṭabāʿaa wa al-Našr wa al-Towzīʿa wa al-Tarjuma. 1st ed. 1405/1985.

Ibn Fāres, Abū al-Ḥosayn Aḥmad ibn ZakarĪyā. Moʿajam maqāyīs al-Loġa. Taḥqīq: ʿAbd al-Salām Muḥammad Hārūn. Madeīnah. Dār al-Fekr le al-Ṭabʿa wa al-Našar wa al-tawzīʿa. N. ed. 1399/1979.

Ibn Ḥanbal, Aḥmad. Musnad al-Imām Aḥmad ibn ḤanbaL. Taḥqīq: Šuʿaayb al-Arnaūṭ wa ʿĀadel Muršed. Byrūt. Muassesa al-Rasāla. 1st ed. 1418/1997.

Ibn Kaṯīr, Abū al-Fadā ʿAemād al-Dīn. Tafsīr Al-Qurān al-ʿAẓīm. Taḥqīq: Sāmīy ibn Muḥammad al-Salāma. Al-Reyāḍ. Dār Ṭayba le al-Našr wa al-Twzīʿa. 2nd ed. 1420/1999.

Ibn Māja, Abū ‘Abd Allāh Muḥammad. Sunan ibn Māja. Taḥqīq: Muḥammad Fawād Abd al-Bāqīy. N. Dār Eḥyāe Al-Kutub al-ʿArabeīya. N.ed. N.d.

Ibn Taymeīya, Aḥmad ibn ʿAbdu al- Ḥalīm. Al-Seyāsa al-Šarʿaeīya.Al-Saʿaūdeīya. Wazāra al-Šuuwūn al-Eslāmeīya wa al-Awqāf wa al-Daʿawa wa al-Eršād. N. ed. 1419.

Ibn Taymeya, Abū al-ʿAbbās Aḥmad ibn ʿAbd al-Halīm. Beyān Al-Dalāyel ʿAla Buṭlān al-Taḥlīl. Taḥqīq: Ḥamdīy ʿAbd al-Majīd al-Selfīn. N. al-Maktab al-Islāmīy. 1st ed. N.D.

Maḥmūd, Jamāl al-Dīn Muḥammad. Uṣul al-Mujtamʿa al-Islāmīy. Ciro. Dār al-Ketāb al-Meṣrīy - Beirut. Dār al-Ketāb al-Lubnānīy. 1st ed. 1413/1992.

Majmaʿa al-Luġa al-ʿAarbeīya. Al-Muʿajam al-Wasīṭ. Ciro. Maktaba al-Šurūq al-Duwaleīya. 4th ed. 1425/2004.

Quṭb, Sayyed. Fī Ẓelāl al-Qurān. Ciro. Dār al-Šurūq. 32th ed. 1423/2003.

Raḍā, al-Sayyed Muḥammad Rašīd. Al-waḥy al-Muḥmmadīy. Beirut.ʿAez al-Dīn le al-Ṭabāʿaa wa al-Našr. 3rd ed. 1406h.

Raḍā, al-Sayyed Muḥammad Rašīd. Tafsīr al-Qurān al-Ḥakīm, Tafsīr al-Manār. Ciro. Dār al-Manār. 2nd ed. 1366/1947.

ʿAumar, Aḥmad Moḫtār. Moʿajam al-Luġa al-ʿAarabeīya al-Moʿaāṣera. Ciro. ʿAālam al-Kutub. 1st ed. 1429/2008.